

موقف صلاح الدين من الفرنجة

د. عبد المجيد الزعبي

العديد من المؤرخين والنقاد الغربيين ينظرون إلى الصراع الذي نتج عن الحملات الصليبية الموجهة ضد المشرق العربي على أنه صراع ديني بين المسيحيين والمسلمين إلا أن الواقع لم يكن كذلك. فلقد عقد الصليبيون عدة معاهدات هدنة وتحالفات مع المسلمين بعد وقت قصير من استقرارهم في سورية وكان ذلك تمشياً مع مصالحهم وخلافاً لتعاليم الكنيسة في روما.

وبالمقابل فإن تسمية الصليبيين بالفرنجة من قبل المؤرخين العرب ما هو إلا دليل على أنهم كانوا لا ينظرون إلى الحرب ضد الصليبيين على أنها حرب ضد المسيحية بل حرب ضد الغزاة الغربيين، والدليل القاطع على عدم وجود الحقد الديني بين الطرفين المتحاربين هو استمرار وجود المسيحيين العرب بين المسلمين طيلة فترة الحرب الصليبية.

بعد عامين من ولادة صلاح الدين استقرت أسرته في بعلبك حيث عُهد بإدارتها إلى والده أيوب بعد استيلاء زنكي عليها في عام 1139 م، وبعد موت هذا الأخير عادت أسرة أيوب بعلبك لتستقر في دمشق حيث قضى صلاح الدين كل أيام شبابه. وبسبب وجودهم في منطقة حدودية مع مملكة الفرنجة كان على ابن أيوب وعلى كل أعضاء أسرته أن يشاركوا في الأحداث التي تمر بها المنطقة. وفي عام 1148 ميلادية لقي أحد أخوته حتفه في أثناء حصار دمشق من قبل الجيش الفرنسي بقيادة الملك الفرنسي لويس السابع والإمبراطور الألماني ملك القدس. وعندما أصبح نور الدين الزنكي حاكماً لدمشق، الذي كان يمثل رمز المقاومة الإسلامية للغزو الصليبي، فقد تبنى صلاح الدين أفكاره وانضم إلى حزبه ووضع نفسه في خدمته. وبعد أن تولى صلاح الدين الحكم بعد وفاة نور الدين عام 1174 م طبق نفس السياسة التي إتبعها سلفه وتابع المسير نحو نفس الهدف وهو تحرير بيت المقدس الأمر الذي لم يمنعه من عقد مساحات هدنة مع الفرنجة كان آخرها الهدنة التي وُقعت في عام 1185 م وكان من المفترض أن تستمر خمس سنوات لولا أن تم إنتهاكها ونقضها من قبل الفرنجة قبل عامين من معركة حطين.

وبالرغم من حقد وغطرسة بعض زعماء الفرنجة على الاسلام والمسلمين فإن صلاح الدين عرف كيف يكتم غيظه ولم تجره عقلية الثأر للانتقام ممن هزمهم أو إلى الحاق الأذى بالأماكن المقدسة المسيحية.

وبعد أن قُتل رينو ده شاتيون حاكم الكرك ببيديه توجه إلى المك غي ده ليزنيان (ملك القدس) الذي كان يبتابه الهلع والخوف من أن يلقي نفس المصير الذي لقيه رينو وقال له : « لم تجر عادة الملوك أن يقتلوا الملوك وأما هذا فإنه قد جاوز حده »⁽¹⁾.

وحينما استولى صلاح الدين على مدن الفرنجة، ترك سكانها يغادرونها مع كل أموالهم وحرص على ألا يصيبهم أي مكروه قبل وصولهم إلى المدن التي اختاروا الذهاب إليها والتي كانت ما تزال في أيدي الفرنجة. منح صلاح الدين الأمان إلى سكان القدس من الفرنجة الذين رفضوا في البداية تسليم المدينة بنفس الشروط التي سلمت بها المدن الأخرى، وعمد إلى تنكيرهم بما ارتكبه من فظائع عندما استولوا عليها لأول مرة قبل 88 عاما.

أبدى صلاح الدين تفهما كبيرا لأوضاع نساء الفرنجة وعاملهن معاملة حسنة تعكس روح الشهامة والفروسية عنده. لقد سمح للملكة ماري كوفين زوجة باليان ديبلان والملكة سبي زوجة الملك غي ده ليزنيان بمغادرة المدينة بحمايته من الحرس السلطاني وبرفقتهن كل الخدم من النساء والرجال وهم يحملون صناديق المجوهرات وكل ما يمتلك من أموال. وسمح أيضا لملكة القدس بزيارة زوجها في سجن نابلس واستقبل الأميرة إيتينيت أميرة ما وراء نهر الأردن وأرملة أونفروا الثالث ده تورون وأرملة رينو ده شاتيون الذي قتله صلاح الدين بعد انتصاره عليهم في معركة حطين ووعدها بفك أسر ابنها أونفروا الرابع حينما يتسلم قلعتي الكرك والشويك⁽²⁾. واستفاد من عفوه وحمايته أيضا الداوية (Les Templiers) والاسبتارية (Le s Hospitaliers) وهم من أشد أعداء المسلمين وحمل أمناء خزائنهم كل ثروتهم وغادروا المدينة دون أن يأبهاو بمصير الناس الفقراء الذين كانوا لا يستطيعون دفع الفدية، والذين بلغ عددهم الـ 16 ألف شخص. فمثلا بطريرك القدس حمل معه كل ما هو مصنوع من الذهب والمعادن الثمينة وكل الأقمشة والسجاد وكل زينة المعابد. وفي هذا كتب عماد الدين يقول : « فقلت للسلطان هؤلاء إنما أخذوا الأمان على أموالهم فما بال هذا المال وهو بألوف يحملونه في أثقالهم فقال هم لا يعرفون هذا التأويل وينسبون إلينا لما حرمناه التحليل، ويقولون إنهم لم يحفظوا العهد ولم يلحظوا العقد ونحن نريهم على ظاهر الأمان ونغريهم بذكر محاسن الايمان »⁽³⁾.

(1)Abou Chama, **Le livre des deux jardins**, Histoire des deux règnes, celui de Nour ad-Din et celui de Salah ad-Din, in R.H.C., H. On, T.IV, Paris, Imp. National, 1890-1906, p. 285.

(2)Abou Chama, (o.c.), T.IV, pp. 331-333.

(3)Abou Chama, (o.c.), T.IV, p. 339.

— Grousset (René), **Histoire des Croisades et du royaume Franc de Jérusalem**, Paris, Plon, 1934-1936, p. 815.

فالسُلطان لم يسمح فقط للبطريرك بالرحيل ومعه كل هذه الأموال بل سمح له (500) شخص من الفقراء أن يرحلوا معه. وأمر بإطلاق سراح كل المسنين منهم والأرامل وكل النساء اللاتي سجن أزواجهن. كما أن أخاه العادل الذي ترأس إدارة دفع فدية الحرب كان يعطف على الفقراء وأطلق سراح ألف منهم بدون أن يأخذ منهم أية فدية. وبعد خروجهم من القدس قسم السلطان المرحّلين من الفرنجة إلى ثلاث قوافل ووضع على كل منها خمسين من جنده لحراستها والدفاع عنها ضد أي هجوم يستهدف حياتهم أو أموالهم حتى يصلوا إلى الأرض التي يسيطر عليها الفرنجة والشئ المثير للدهشة أن هؤلاء الفرنجة المرحّلين تعرضوا للنهب والسلب عندما وصلوا إلى الأراضي التي كانوا يقصدونها من قبل بني جنسهم الفرنجة.

« كان مسيحيو عسقلان الذين توجهوا نحو الدلتا في مصر هم أكثر الفرنجة حظا كما يقول رينيه غروسيه لأنهم كانوا ينعمون بحماية صلاح الدين طيلة فصل الشتاء كما أنهم كانوا يتلقون العناية الصحية في الاسكندرية وكانت المونّ تصلهم باستمرار وبانتظام. وتمكن هؤلاء من السفر إلى أوروبا عن طريق البحر في آذار عام 1188 م حتى ان نقلهم لم يتم إلا بفضل الموقف الانساني الذي وقفه قاضي الاسكندرية. ذلك لأن قادة المراكب الايطالية الراسية في ميناء الاسكندرية والتي بلغ تعدادها حوالي 36 سفينة كانوا يبتغون فقط نقاط المسيحيين الأغنياء والقادرين على دفع الأجرة. لكنهم كانوا يرفضون وبدون شفقة أن يتحملوا أعباء المسافرين المعدمين الذين لا مال لديهم. مما دفع القاضي إلى أن يُعيب عليهم موقفهم اللانساني. ولإجبارهم على العدول عن موقفهم هددهم القاضي بعدم إعادة حبال المراسي وموجّهات السفن وهددهم أيضا بفرض المقاطعة على مراكبهم. وخوفا من أن يقوم قادة المراكب بانزال هذه المجموعات على أي شاطئ مهجور حمّلهم ممثل صلاح الدين المسؤولية شخصيا عن عبور هؤلاء الناس ووصولهم إلى بر الأمان »⁽⁴⁾. فالسلطان الذي لم يهدر دم الفرنجة ووفر الحماية لهم ولأموالهم لم يفكر بتاتا بالمساس بالأماكن المقدسة المسيحية والتي تركها على حالها الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه عندما فتح المسلمون القدس في عام 637 م فالخليفة عمر رضي الله عنه لم يحرق الكنائس من الهدف وإنما سمح للمسيحيين بممارسة معتقداتهم الدينية بحرية كاملة. فالمسيحيون العرب لم يكونوا أبداً أجانِب بالنسبة لصلاح الدين بل كانوا من سكان البلد عاشوا بين المسلمين واستمروا بالعيش معهم طيلة فترة الحروب الصليبية دون أن يتعرضوا لأي أذى حتى أن أحد أبرز مستشاري صلاح الدين كان كاهنا أو ثونكسيا ويدعى جوزيف باتيت الذي كان مسؤولا عن العلاقات مع الفرنجة ومع الطوائف المسيحية الشرقية⁽⁵⁾ وهذه الطوائف المسيحية وعدت باتيت بفتح باب المدينة أثناء حصار صلاح الدين للقدس إذا استمر الفرنجة في تعنتهم زمنا طويلا. لقد رد صلاح الدين على من كان ينصحه من المسلمين بتدمير كنسية القيامة وكل الأديرة في القدس حتى لا يكون هناك أية حجة للغربيين بالعودة إلى بلادنا بقوله : « لا يجدي نفعا تدمير الكنيسة أو هدمها ولا حتى منع المسيحيين من دخولها أو زيارتها لأن متعبدهم موضع الصليب والقبر لا ما يشاهد من البناء ولما فتح أمير المؤمنين

(4)Grousset (René), (o.c.), T.II, p. 819.'

(5)Ibid., T.II, pp. 811-812.

عمر بن الخطاب رضي الله عنه القدس في صدر الاسلام أقر للمسيحيين هذا المكان ولم يأمر بهدم البنيان»⁽⁶⁾. لكن حتى لو لم يلزم السلطان الكبير على تسامحه مع خصومه المهزومين فإنه بالمقابل كان يُلام على تركه الفرصة للفرنجة لتنظيم أنفسهم وتركهم يتجمعون في المناطق الساحلية التي كانت ما تزال تحت سلطة الفرنجة وعلى عدم إظهار الحزم الكافي للاستيلاء على هذه المناطق.

ويقول ابن الأثير : « كان صلاح الدين لا يبدي أي حزم في قراراته فعندما كان يحاصر مدينة وكان المدافعون عنها يبدون مقاومة لوقت طويل، كان يضجر ويرفع الحصار ففهما يكن الملك لا يتصرف بهذه الطريقة حتى لو ساعده القدر من الأفضل غالباً أن نخفق ونبقى حازمين بدلاً من أن ننجح ونبدد ثمرات نجاحنا. لا شيء يوضح هذه الحقيقة مثل تصرف صلاح الدين أمام مدينة صور. فبسبب خطئه وقطع بسبب خطئه أصيب المسلمون بنكسة أمام هذه المدينة »⁽⁷⁾.

ووراء هذا النقد لم يستطع ابن الأثير المؤرخ الموصلية أن يخفي حزنه وأسفه لعدم رؤية أصحاب الموصل يلعبون الدور الرئيسي في تحرير القدس ويشاركون صلاح الدين الافتخار بهذا الفتح المجيد. إلا أن تتابع الحوادث التالية يشرح لنا جزئياً موقفه تجاه السلطان. في الواقع أن الأماكن التي لم يستطع أو لم يرد السلطان دخولها أصبحت معاقلة للمقاومة الفرنجية واستخدمت كرؤوس جسور إلى التعزيزات القادمة من وراء البحر. فمثلاً. الملك غي دي ليزينيان الذي أعتقه صلاح الدين مقابل وعدٍ منه بمغادرة سورية وعدم اشهار السلاح في وجه المسلمين عاد بعد سنة واحدة من اطلاق سراحه في آب عام 1189 م ليحاصر عكا مع من تبقى من فلول الجيش الفرنجي المهزوم.

وبعد سنتين من ذلك وفي عام 1191 م جاء الفعل اللانساني لملك انكلترا ضد حامية عكا التي عُدّبت وقُتل جميع أفرادها بوحشية بعد أن سلموا المدينة إلى قادة جيش الحملة الصليبية الثالثة مقابل الحفاظ على حياة كل الموجودين فيها.

طبعاً هذا لا يمكن إلا أن يدعم حجة خصوم صلاح الدين إلا أنه استمر باتّباع نفس السياسة دون تغيير. فكانت لديه السلطة الكافية ليفرض القانون والنظام داخل دولته والقوة الكافية لافشال الحملة العسكرية بقيادة الملك ريشارد. وعندما وجد هذا الأخير أنه لن يستطيع استعادة أراضي مملكة الفرنجة وبصورة خاصة القدس قرر اللجوء إلى الحيلة للوصول إلى هدفه ولوضع حد للحرب الدائرة بين الفرنجة والمسلمين فقد عرض زواج أخته أرملة ملك صقلية من العادل، أخ صلاح الدين، بشرط أن يقطن الزوجان في القدس ويحكموا على كامل

(6)Abou Chama, (o.c.), T.IV, pp. 340-341.

— Gabrieli (Francesco), *Chroniques arabes des Croisades*, Paris, Sindbad, 1977, p. 200.

(7)Maalouf A., (o.c.), p. 221.

الساحل. وبناء على طلب العادل، الذي أمام السلطان، يقول بهاء الدين، ورددت عليه ما سمعته. مباشرة قال لي : « إنه لا يرى في ذلك ما يضر. لكن حسب رأيه أن ملك إنكلترا هو نفسه لن يقبل بمثل هذه التسوية والأمر لا يعدو كونه مزاح أو حيلة. ثلاث مرات سألته تأكيد موافقته وهذا ما فعل »⁽⁸⁾.

وفي الواقع فإن ريشارد كان يحاول بهذه المناورة أن يثير العادل ضد صلاح الدين. إذ أن عدم موافقة السلطان سوف تزعج أخيه الذي سيتولد لديه الاحساس بأن السلطان ليس على استعداد لأن ينزل له عن الأراضي المرتبطة بالتسوية. وبالرغم من أن لعبته قد كشفت، فإن ملك إنكلترا بقي على علاقات طيبة مع العادل وكان يدعوه « أخي ». واستمر بارسال مبعوثيه إلى صلاح الدين عن طريق العادل طالبا باستمرار إعادة القدس. وكانت إجابة السلطان دائما : « حقنا بالقدس ليس بأقل من حقكم، حتى أنها بالنسبة لنا أكثر قدسية مما هي لكم، لأن فيها ستجتمع أمتنا يوم الحساب. لا نتخيلوا بأنه بإمكاننا أن نعدل عنها أو نتساهل في هذه النقطة.

أما بالنسبة إلى الأرض فإنها كانت في البداية لنا بينما أنتم فيها منذ زمن ليس ببعيد، ولم تستولوا عليها إلا بسبب ضعف المسلمين الذين كانوا يسكنونها في ذلك الوقت. والله لن يسمح لكم ببناء حجر واحد فيها ما دامت الحرب مستمرة »⁽⁹⁾.

استمرت الحرب مستعرة بين الجانبين، وفي نهاية الحملة العسكرية الطويلة والمرهقة كان على الملك الإنكليزي أن يتخلى عن مطالبته بالقدس وأراضي مملكة الفرنجة وأن يقبل بهدم قلعة عسقلان التي شارك هو نفسه في بنائها مقابل التوقيع على مساهمة السلام. وإنتهت المفاوضات إلى عقد هدنة لمدة ثلاث سنوات بين المسلمين والفرنجة.

وتعهد الزعماء بأداء اليمين يوم الأربعاء في 22 شعبان عام 588 هجري الموافق 2 أيلول عام 1192 ميلادي. بعد عقد معاهدة السلام، أمر صلاح الدين أن ينادوا فوراً في البلاد بأن السلام يشمل كل الأراضي وأنه مسموح من الآن فصاعداً عبور الحدود بين الدولتين. وما أن علم الملك ريشارد بعزم معارضييه الفرنسيين على الحج إلى القدس حتى أرسل مندوبيه إلى السلطان يطلب إليه أن لا يسمح بدخول المدينة إلا لمن يحمل تصريحاً منه⁽¹⁰⁾. وقد رفض صلاح الدين هذا الطلب وأجاب ملك إنكلترا بقوله : « هنا أناس قدموا من بلاد بعيدة جداً ليقوموا بزيارة الأماكن المقدسة وديننا يحرم علينا أن نمنعهم من زيارتها »⁽¹¹⁾.

(8)Maalouf A., (o.c.), p. 230.

(9)Gabrieli F., (o.c.), pp. 252-253.

(10)Paris (Gaston), *L'histoire de la guerre sainte*, par Ambroise, Paris, imp. Nationale, 1897, p. 458.

(11)Baha ad-Din, *Tournez S.V.P.*

إن معاهدة السلام التي عقدت في عام 1192 بين الملك ريشارد قلب الأسد وصلاح الدين سمحت للحجاج الفرنج بالذهاب إلى القدس التي بقيت بيد صلاح الدين. هؤلاء الحجاج كما يقول أمبرواز، أحد رعايا الملك ريشارد ومؤلف كتاب « تاريخ الحرب المقدسة »، والذي يعتبره المؤرخون الغربيون من أهم المصادر التاريخية وأصدقها والتي كُتبت عن تاريخ الحملة الصليبية الثالثة، فُسِّموا إلى ثلاث مجموعات :

« المجموعة الثالثة، كما يقول أمبرواز، فكانت بقيادة الايبيك الذي أصبح فيما بعد أرشيتك كانتوربريري (Cantorbéry) وللحقيقة أنه بسبب شهرته وجدارته ومكانته العالية أوصى صلاح الدين باستقباله الاستقبال الذي يليق بمقامه والذي سأرويهِ لكم فيما يلي : « أرسل صلاح الدين رجالا لملاقاته ولیدعوهُ للعيش معه وعلى نفقته، لكن الايبيك إعتذر وأجاب أنه قدم للقدس للحج وأنه لا يجوز أن يكون على نفقة أحد، عندها صلاح الدين أمر رجاله بأن يعتنوا به ويكرموه هو ومن معه وقدم له الهدايا الكثيرة وأمر باصطحابه إلى كل الأماكن التي مر بها سيدنا المسيح عليه السلام. وبعد ما دعاه لعنده للتعرف عليه، وأظهر له الصليب المقدس ومن ثم أجلسه بجانبه وتحديثا وقتا طويلا. بدأ صلاح الدين بطرح أسئلة عن صفات ملك انكلترا وسأله عما يقوله المسيحيون عن صفاته هو نفسه.

أجاب الايبيك : « مولاي، بالنسبة إلى سيدي أستطيع أن أقول أنه أفضل فارس وأفضل محارب في العالم. فهو كريم وذو صفات حميدة. دون الأخذ بذنوبنا فإننا لو استطعنا جمع صفاته مع صفاتك نستطيع القول بأن في العالم كله لا نجد لكم مثيلين بالشجاعة والخبرة والحنكة. بعد أن سمع السلطان حديث الايبيك قال له : « أعرف ذلك، الملك عنده الكثير من الشجاعة والجرأة لكنه يندفع بشكل جنوني. فمثلا أنا أفضل أن أتميز بصفات التسامح والتصرف بحكمة بدلا من الشجاعة والتصرف بتهور ». بعد أن أنهى صلاح الدين حديثه مع الايبيك بواسطة المترجمين واستمع إليه بارتياح سأله أن يبدي رغبته في أي شيء يستطيع تقديمه له. شكره الايبيك، وقال : « وديني أنه لشيء عظيم إذا نحن فهمناه. لكن إذا سمحتم سأنتظر لأسأل الله النصيحة في هذا الطلب هذا المساء وسأعود غدا ». سمح له السلطان بذلك وفي اليوم التالي قدم الايبيك طلبه وكان شيئا عظيما ما حصل عليه. طلب أن يكون لكنيسة القيامة التي زارها والتي لا يقوم على خدمتها الا عدد قليل من المسيحيين العرب⁽¹²⁾ الذين يخدمونها بطريقتهم الخاصة، إثنين من الكهنة اللاتين الذي سيقومون بالخدمة كل يوم، صباحا ومساء كما يعمل المسيحيون العرب مع إثنين من نواب الكهنة لمساعدتهم ويعيشون كلهم من الهبات وإن يكون لبيت لحم والناصرة كهنة لاتين مثل ما هو للقدس.

وعد السلطان الايبيك بتلبية رغبته طالما هو يملك البلاد. بعد أن أنهوا زيارتهم للقدس وقاموا بزيارة كل ما يرغبون زيارته، استأذنوا من صلاح الدين وعادوا إلى عكا. وعندما عاد الجميع

(12) كان المؤرخون والكتاب الغربيون يطلقون على المسيحيين العرب اسم السوربين.

صغارا وكبارا من القدس تم تجهيز المراكب وصعدوا عليها ورفعوا الأشرعة وتم السفر فيما أصبحت الريح مواتية» (13).

بعد عقد معاهدة السلام مباشرة، إختلط الناس ببعضهم البعض لأن بنود الاتفاق تؤكد على حق كل طرف بالبقاء في المواقع التي يسيطر عليها وتنص أيضا على السماح بحركة الناس والبضائع بين الدولتين (14). ويقول بهاء الدين في ذلك : « إختلط الجيشان ببعضهما البعض، اعدادا كبيرة من المسلمين ذهبت إلى حيفا للتسوق بينما وصل الفرنجة باعداد غفيرة إلى القدس» (15).

وأمبرواز الذي رافق المجموعة الثانية من الحجاج الفرنج يعطينا انطباعاته عن أول لقاء سلمي وهو يعبر عن مخاوفه لرؤية المسلمين وهم يأخذون بثأر أقاربهم الذين قتلوا في عكا من الحجاج الفرنج.

« فورا، يقول امبرواز، دعا صلاح الدين قادته وقال على لسان سيف الدين بأنه يأمر بحماية المسيحيين وأن يسمح للفرنج بالذهاب للحج إلى القدس والعودة منها. وإضافة إلى ذلك كان هؤلاء الحجاج يلقون معاملة حسنة وكريمة طويلة فترة إقامتهم من وقت وصولهم إلى القدس إلى حين عودتهم إلى عكا» (16).

وهكذا فإن السلطان لم يطبق فقط الاتفاقات المعقودة بحذافيرها بل كان كريما وسخيا مع الحجاج الفرنج.

أخوه العادل سيف الدين، كما يقول أمبرواز والذي إليه كان يجب أن يتوجه رسل المجموعة الأولى من الحجاج ليعلموه بقدمهم. أتب بشدة هؤلاء الرسل لتأخرهم بأعلامه وعاب على رئيسهم تهوره. ويضيف أمبرواز أن سيف الدين وجه اللوم الشديد إليهم وقال : « إن ذلك عملا جنونيا وأن من نصح بتأخرهم هو إنسان أحمق ولا يأبه بسلامتهم حتى يقودهم ويأتي بهم إلى هنا هكذا بدون تصريح» (17).

أليس شيئا غريبا أن نرى هذا المسلم (الसारازان) يبدي قلقه الشديد في الحفاظ على أرواح الفرنج والذي كان ولأيام قليلة ماضية لا يتمنى لهم إلا الموت أو الأسى أيمكننا التشكيك بصدق عواطف العادل أو بالأصح بصحة رواية أمبرواز ؟

(13)Paris (Gaston), *L'histoire de la guerre sainte*, par Ambroise, (o.c.), pp. 461-462.

(14)Ibid, p. 458.

(15)Baha ad-Din, (o.c.), T.III, p 349.

(16)Paris, *L'histoire...*, (o.c.), p.460.

(17)Paris (Gaston), *L'histoire de la guerre sainte*, par Ambroise, (o.c.), p. 459.

للإجابة على هذا السؤال غاستون باديس يقول : « باستثناء بعض الحوادث التي لا يستطيع أمرواز أن يعلم بها إلا بشكل غير مباشر وباستثناء الحلقة الكبيرة من كتابه التي يتحدث فيها عن الأحداث في سورية قبل 8 حزيران 1191 م فإن رواية أمبرواز صادقة جدا وجديرة بالثقة »⁽¹⁸⁾.

ومن المهم الإشارة أيضا إلى أن الأحداث الرئيسية التي يذكرها أمبرواز في روايته والتي تتعلق بالحملة الصليبية الثالثة يؤكدُها المؤرخون العرب وخاصة بهاء الدين الذي لم يكن فقط شاهد عيان على الأحداث وإنما إحدى الشخصيات الفاعلة من جانب المسلمين.

وللإجابة على السؤال الأول، لا يمكننا بادئ ذي بدء إلا الإشارة إلى تلقائية الحج إلى القدس عند المحاربين الفرنج الذين كانوا على استعداد للتضحية بأنفسهم من أجل استعادة المدينة المقدسة.

هؤلاء المحاربون الذين لم يخلعوا دروعهم أو يلقوا بأسلحتهم طيلة مدة الحملة العسكرية التي قادها الملك ريشارد قلب الأسد، قبلوا بالذهاب إلى مناطق خصومهم مجردين من السلاح دون أن يخافوا على أنفسهم لأنهم كانوا يتقنون بالمواثيق والعهود المعقودة بين الطرفين.

وفي معاملة صلاح الدين للحجاج الفرنج يقول بهاء الدين « كان السلطان يستقبل الحجاج بلطف ويقدم لهم الطعام ويتحدث معهم بوجه بشوش »⁽¹⁹⁾.

يقوله إقامة السلام كان صلاح الدين يهدف إلى خلق الشروط الضرورية لإقامة علاقات تفاهم أفضل بين الحضارتين الإسلامية والغربية.

وبفضل حكمته فُتحت صفحة جديدة في تاريخ العلاقات الفرنجية الإسلامية، كان المسلمون في القدس لا يؤمنون فقط سلامة الحجاج الفرنج وأمنهم بل كانوا يقدمون لهم الطعام حتى أن بعض الفرسان منهم قد حظي بمنزلة فائقة عند السلطان، هؤلاء الحجاج الفرنج مثلهم كمثل كل من انتفع من تسامح وكرم صلاح الدين كانوا يشهدون له بصفاته الحسنة وفضائله.

فالصورة التي نقلوها معهم إلى بلادهم عن هذا الزعيم المسلم ساعدت على تطوير أسطوره في أوروبا، فالنسبة لهم أن صلاح الدين لم يعد ذاك السارازان الذي يسعون إلى قتله مهما كلف الثمن. وإنما هو خصم حكيم، شجاع ويمتلك من الصفات والمزايا الحميدة ما يضاهي بها صفات ومزايا أعظم الشخصيات الفرنجية. أمبرواز، أحد رعايا الملك الانكليزي، لم يجد نفسه محرجا عندما وضع صلاح الدين في نفس مقام سيده وقبل على لسان الايقيك أنه لا يوجد مثيلهما في العالم كله. كثيرة هي القصص التي تروي كرم صلاح الدين لكن أحد هذه

(18)Ibid., p. LVII.

(19)Baha ad-Din, (o.c.), T.III, p. 350.

القصص تشهد إلى يومنا هذا على كرم وتسامح السلطان واحترام أحد الفرسان الفرنسيين لكلام قطعه على نفسه⁽²⁰⁾. حسب هذه القصة أن أحد الفرسان الفرنسيين من منطقة انكليرز وقع أسيرا بيد صلاح الدين وتقديرا منه لشجاعته منحه السلطان الحرية بالذهاب إلى بلده في فرنسا ليجلب الفدية. في فرنسا وجد الفارس أن أهله قد تصرفوا بأملاكه ولم يستطع جمع المبلغ المطلوب فعاد من جديد إلى سورية ليدخل السجن، تأثر السلطان لسلوكه ولحفظه لوعده وأراد أن يجزيه على ذلك وقرر إطلاق سراحه لكن بشرطين :

الشرط الأول : أن يحمل الأولاد البكر من نسله اسم صلاح الدين.

والشرط الثاني : أن يكون شعار كل فارس من سلالته يكون من الجُلجُل يسنده الهلال وهو الشعار الذي كان يحمله حصان صلاح الدين يوم المعركة⁽²¹⁾.

صلاح الدين الأول كان الاسم الذي حمّله فعلا الابن الثالث لاجيه الأول والمتوفى عام 1256 م وصلاح الدين الأول هذا كان حاكم لمدينة تروا في فرنسا وخدم الملك فيليب لويس في حملته في منطقة الفلانور في عام 1312 م .

والأخير في هذه العائلة الذي حمل اسم صلاح الدين كان لويس صلاح الدين حاكم منطقة الشامبانية وتقع في شمال فرنسا والذي تزوج في عام 1682 م وتوفي بعد عام 1732 م دون أن يكون له أولاد .

الآن أن العديد من العائلات الفرنسية ما زالت تحمل إلى يومنا هذا اسم صلاح الدين ككنية لها مما يدل أو يعبر عن احترامهم وتقديرهم لهذا القائد المسلم الفذ....».

(20)Paris (Gaston), «La légende de Saladin», Journal des Savants, 1893.

(21)Vallet de Viriville, (o.c.), p. 201.